تجارب معلمين:
ممارسة تأملية في سياق بحثي تفاعلي

مالك الريماوي

ملف مختلف هذا أول ما يمكننا قوله في التقديم له، فهو ملف من إنتاج معلمين فلسطينيين من حيث النص والخطاب؛ أي أنه مكتوب من خلال نصوص هي شهاداتهم على ممارسة لهم وتجربة تخصهم، وهو تعبير عنهم بلغتهم وخطابهم، وبكل ما يعنيه ذلك من صوت خاص وتجربة صراعية مع الذات ولغتها السابقة، ومع الخطاب الاجتماعي التربوي السائد ولغته الوعظية والإرشادية.

فما نقدمه هنا، هو تجارب بناها ونفّذها معلمون ملكوا الجرأة والرغبة والاستعداد للقيام بمثل هذه التجارب التي مثلت فتحاً للتعليم على موضوعات جديدة: تاريخ قريتهم وسيرتها، مجلة عن الطلاب أنفسهم، فيلم عن مدينة عكا، العرس الفلسطيني، النكبة وذاكرة المهجرين، الطفل وحقوقه، مقاربات تعليمية مفتوحة على الدراما، وإنتاج مساحات وأدوات تعطي للطلاب أشكال انخراط نوعية ومختلفة، وقد تم التمهيد لذلك من خلال بناء أطر تفاعلية متعددة بين المعلمين المنخرطين في تنفيذ التجارب، وبناء المجموعة بشكل فريق عمل من جهة، وبينهم وبين طلابهم من جهة ثانية، وبينهم وبين مركز القطان للبحث والتطوير التربوي من جهة ثالثة.

وقد بنيت التجارب في داخل المدارس، ولكن على حدود النظام فيها، حيث موضوعات التجارب إما على تماس مع المنهاج، وإما هي في نقطة خارج المنهاج الرسمي، وإن تضمنت معظم موضوعاته بشكل حر ومتكامل، فكل مشروع من هذه التجارب قد حمل في داخله أهم ما في المنهاج من رؤى ومعارف وغايات، بعد أن وضعها في نقطة خارج المنهاج الرسمي وجعل من هذه النقطة بؤرة مشروع متكامل وسؤال له صلة بحياة الطلاب وبمسألة هويتهم أو مجتمعهم أو رغبتهم. أما الإطار الأهم الذي أعاد صياغة النظام المدرسي وعلاقاته، فهو انتزاع فكرة العلامات والاختبارات من موقعها كشكل للعلاقة بين الطالب والمعلم والمعرفة، ففي هذه التجارب لم ترتبط المعرفة بمسألة الاختبارات، ولم تعد العلامة المدرسية تتوسط بين المعلم والطالب، وهذا أفضى إلى فتح هذه العلاقة على تخيلات جديدة في خصوص العلاقات والأدوار، وفي خصوص أشكال تقييم العمل من داخله ومن قبل كل الأطراف، وبشكل يغذي العمل، ويبحث عما هو أفضل وأجدي.

لقد تمحورت هذه التجارب على مشاريع يبدع خلالها الطلاب مع معلميهم موضوع تعلمهم وأدواته وطرائقه، يقيمونه بشكل جماعي فاعل، يحولونه لقضية تخصهم وفعل ينتسب إليهم وينتسبون له، وهو أيضاً مكان للمعلمين لمساءلة الدور التقليدي وفتحه على تخيلات جديدة، وهذا ما أفضى إلى تحولات لدى المعلمين في الممارسة والتأمل، في الرؤى النظرية، حيث حاجتهم لتطوير المشاريع وتحويلها إلى منتجات معينة: مجلة، أو كتاب، أو فيلم . . . ، ورغبتهم في كتابتها والتعبير عنها في شكل يخصهم ويعبر عنهم، دفعتاهم إلى البحث المعرفي لبناء أدوات معرفية، تجعل العمل والتحليل يتجاوز التفكير الحدسي العفوي باتجاه التفكير المنهج.

ولكن التغير الأكثر عمقاً هو ما تحقق في داخل الطلاب والمعلمين، الذي ظهر الكثير منه فيما أنتجه المعلمون والطلاب على مستوى ما بنوه من أفعال في عمق غايتها وفاعلية شكلها، وفي خطاب التعبير عنها، وبخصوص العمل وما فيه من تحولات ستتركه للتجارب، وأما ما خلف التجارب من دلالات فقد خصصنا قراءة أولية في التجارب تساعد في قراءتها.

ومع ذلك، سنشير إلى أعمق التغيرات التي لم نركز عليها، وإن كانت جوهر المشروع في شكله البحثي، فالمعلمة فداء في نقاش حول المشروع تقول: إن ما حصلت عليه هو أكثر مما فعلته، وهو ذاك الشيء الذي لم أتمكن من قوله في الشهادة التي كتبتها، لأنه شيء بدأ داخلي ولم يتحقق بعد، لكنه سيكون أساس ما سأحققه مستقبلاً، لأن تجربة مثل هذه، وفي السنة الأولى للمهنة، أعطتني قدراً من الجنون والجرأة ستجعلني أغامر دوماً من منطلق أنني معلمة ضد تقليدية، يمكنني أن ألخص كل ما قلت، أصبحت أحس أنني قادرة، لقد تملكت الإحساس بالقدرة، وهذا سيمكنني من صناعة القدرة نفسها عبر تاريخ مهني بدأ بانطلاقة كبيرة.

إن هذه القدرة قد عبر عنها معتصم بشكل أعمق عندما توغل في تاريخه المهني والشخصي ليسرد حادثة ربطت بين اسمه وقصة الخليفة المعتصم وموقف لمعلم لم يكن يعرف أن لسلطته حدوداً، وهذا نفسه ما تجلى في موقف يوسف الخواجا عندما كتب بجرأة ضد قرار نقله من مدرسة المدية، ولا نريد أن نقف عند قرار النقل ودلالته التي تسببت في تعطيل سلاسة المشروع، وحرمت الثنائي الخواجا من المراكمة على تجربتهم، وحرمت مدرسة المدية من المرشد الذي حقق ولادته المهنية فيها، ولكن يمكننا أن نقرأ في موقف يوسف، الذي تجلى برفض وبمراجعة المكتب؛ مراجعة مرتكزة على دوره في المشروع، وعلى ما في المشروع من عمل ومنجز، وهذا يؤكد رؤيتنا الأولية لهذه المشروعات، وقدرتها على فتح مساحة للمعلم ليبني فاعليته وقدرته، وهذا ما قصده المعلم عبد الرحيم زايد من قصته مع مسؤوله الحزبي عندما سأله عن جدوى توزيع منشورات لا يقرأها أحد، ولن تتمكن من تغيير أي شيء، حينها قال له «إن لم تُغير الواقع من خلال هذا العمل فبلا شك ستتغير أنت».

في النهاية، لا يسعنا إلا أن نقدم شهادة كبيرة للمعلمين والمعلمات الذين أغنوا هذا العدد بهذه التجارب، التي اندرجت ضمن مشروع واحد سعى لفتح التعليم على الحياة من جهة، ومن جهة أخرى جعل التعليم فرصة للمعلم لمراجعة دوره ومنظوره لذاته في سياق مهنة هي ذاتها صناعة فاعلة للإنسان الذي يمارس صناعتها.

محرر الملف